مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات-المجلد السادس-العدد الأول ٢٠٠٤

كيفية التعرف على السنن الإلهية من خلال القرآن الكريم

أحمد سليمان البشايرة*

الملخص

تناول هذا البحث كيفيّة التعرف إلى السنن الإلهية من خلال القرآن الكريم. وتألف من مقدمة ومبحثين اثنين؛ أما المقدمة: فقد اشتملت على بيان أهمية البحث في السنن الإلهية ومعرفتها، وتعرضت لبيان الجهود السابقة في هذا الباب وموقع هذا البحث منها وسبب اختياره. وأما المبحث الأول: فقد تناول الأسس والمرتكزات الضروريّة لفهم السنن الإلهية، وهي: الإيمان بالله، وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وما تحمله من دلالة على أفعاله الحكيمة جل وعلا،والإيمان بالقدر الذي أحكم الله تعالى به شؤون الخلق، والإيمان بالهداية القرآنية القويمة ،وبشمولها لجميع ما يحتاجه الإنسان، ومن جملتها الاهتداء إلى أن لله في كونه سننا، والوقوف على أهمية هذه الأسس في الكشف عن تلك السنن. وأما المبحث الثاني: فقد تناول كيفية التعرّف إلى السنن الإلهية من خلال تقسيمها إلى نوعين ؛الأول: السنن التكوينيّة، وهي: النظام الكونيّ الشامل الذي عمّ جميع الخلائق صغيرها وكبيرها ،من حيث : خلقها ونظامها ووظيفتها الفطريّة. وهذا النوع يمكن التعرف إليه من خلال البحث والنظر والتجربة. وهذا البحث يعنى بالكشف عن دور القرآن في توظيف الإنسان وتكريمه وتزويده بالوسائل اللازمة، ودفعه إلى التفكر بآيات الله الدالة على وحدانيته وتدبيره للكون وفق نظم ثابتة، كما يضع بين يديه قواعد ومسلمات علمية يفتح بها مغاليق العقل إلى أسرار الكون. وذلك ما يشهد أن القرآن تنزيل من له العلم الكامل الشامل بحقائق الوجود. والنوع الثاني السنن التشريعيّة: وهي ما رتبه الله تعالى من أفعال على وفق تجاوب المكلفين من عباده مع الأوامر والنواهي الصادرة منه تعالى من حيث إكرامهم وتوفيقهم، أو الانتقام منهم ومعاقبتهم. وطريق معرفة هذا النوع من السنن هو: القرآن الكريم وسنّة النبي العظيم صلوات الله وسلامه عليه. ويمكن استقراؤها من أساليب القرآن والسنة، في الخبر، والاستفهام، والقصر، والقسم وضرب الأمثال، والقصص. وغيرها، إذا دلت على أفعال الله المطردة مع عباده إزاء الكفر والإيمان، أو الطاعة والعصيان. وأعقب ذلك خاتمة تضمنت عددا من النتائج والتوصيات.

المقدّمة

إن الكشف عن السنن الإلهية يعد موضوعا حيويا هاما يبرز جانبا عظيما من رسالة العلم والدعوة إلى الإيمان، كما يعد تبصرة وذكرى لأولي الألباب في الكشف عن القانون النافذ، والأمر الغالب، والحكم الصائب، والقضاء المبرم الذي لا يُرد، به تنقاد السماوات والأرض، وله تخضع الجبابرة والأمم والأفراد والخلائق صغيرها وكبيرها طوعا أو كرها.

أهمية البحث في السنن الإلهية

يعد طرق هذا الموضوع على ندرة باحثيه وقلة دارسيه، قياسا على غيره من مباحث الشريعة فتحا في بابه لكثرة محتاجيه وقلة مبصريه، مع غفلة أكثر الناس عمّا يطوقهم ويحيط بهم من أحكامه التي تنطق عليهم بالحق، من حيث يعلمون أو لا يعلمون، ومن حيث يرضون أو يسخطون. وفي هذه الفترة التاريخية الحرجة التي تمر بها الأمة الإسلامية تتزايد الحاجة إلى البحث عن الوسائل والطرق التي تعود بالأمة الإسلامية إلى موقعها، فتنشط الحركة الفكرية للبحث عن

---

*أستاذ مساعد، جامعة إربد الأهلية، إربد – الأردن.

أمثل السبل لبناء الأمم والحضارات وأسباب التمكين، وعن أسباب الزوال والانحدار، وتداول الأيام، والإفادة من الماضي في الاقتداء بالصواب الناجح وتبنيه، والاعتبار بالخطأ وتوقيه، مع ربط الأسباب بالمسببات، ومعرفة ترتيب أولويات الأعمال في طريق العودة إلى الهدف المنشود.

ولما كانت مصادر الشريعة الإسلامية هي أوثق الطرق وأصحها في الكشف عن السنن الإلهية، فإن ذلك يزيد الأمر أهمية في ربط مسار الحياة الإنسانية على مستوى الأفراد والجماعات والأمم بالدين والعقيدة، في عصر غلبت فيه الحياة المادية والتفكير المادي على أكثر الناس.

الجهود السابقة

الحديث عن السنن الإلهية ليس جديدا بمضمونه على الفكر الإسلامي، سواء أكان في العقيدة أو التفسير أم في الدعوة والمواعظ والتربية، ولكن الجدة في استعمال هذا الاصطلاح وتبلور مفهومه، وحصره ضمن موضوع محدد منضبط متميز عن غيره من علوم الشريعة، فلا نكاد نجد ذكرا لهذا المصطلح في كتب الأقدمين، ولا في الكتب المتخصصة في التعريف بأنواع العلوم والفنون؛ كالفهرست لابن النديم، وكشف الظنون عن أسامي العلوم والفنون للحاجي خليفة، وأبجد العلوم للقنوجي ونحوها، غير أننا نجد تطبيقات على الدراسات التاريخية على وفق السنن الإلهية عند ابن خلدون.(١)

ويمكننا القول بأن هذا المفهوم بدأ يظهر على شذرات متفرقة في كتب المتأخرين، كتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ،وفي ظلال القرآن لسيد قطب. ثم أخذ هذا الاتجاه يتنامى في زحمة التيارات الفكرية المادية التي أخذت تغزو العالم الإسلامي، إضافة إلى ما يمر من منحدر تاريخي يدفع إلى البحث عن أسباب النهوض، فأخذت العديد من الدراسات الإسلامية المتخصصة تظهر مجالات متعددة في هذا الاتجاه، سواء ما كان منها في كتب أم رسائل جامعية، أم أبحاث متفرقة، أم تبويبات موضوعية وأذكر منها الجهود الآتية(٢): -

١. سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم / محمد الصادق عرجون .
٢. السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات / د. عبد الكريم زيدان.
٣. السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك / شريف صالح الخطيب، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، فرع العقيدة.
٤. السنن الربانية في التصور الإسلامي / راشد سعيد شهوان، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الشريعة، قسم الثقافة الإسلامية.
٥. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها/ محمد هيشور، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس / كلية

---

١. ابن خلدون، **المقدمة**، مباحث متعددة حول نشوء الدول والحضارات وعوامل قوتها وضعفها وأسباب زوالها.

٢. شهوان، د. راشد سعيد، **مدخل إلى السنن الربانية**، بحث مقدم لمؤتمر السنن الإلهية في الكتاب والسنة المنعقد بجامعة الزرقاء الأهلية بتاريخ ٢٢-٢٤/٧/ ٢٠٠٣ م ذكر فيه عددا من هذه الجهود .

الآداب، منشورة: ١٩٩٦م .

٦. حول التفسير الإسلامي للتاريخ / محمد قطب.

٦. فقه التاريخ / د. عبد الحليم عويس.

٨. فقه التحضر الإسلامي/عبد المجيد عمر النجار.

٩. الإسلام وحركة التاريخ /أنور الجندي .

١٠. التفسير الإسلامي للتاريخ / د. عماد الدين خليل .

١١. السنن التاريخية في القرآن / محمد باقر الصدر.

١٢. مشكلات الحضارة / مالك بن نبي.

١٣. عوامل فساد الأمة كما تصورها سورة الأعراف/فايز صالح الخطيب، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، الأزهر

١٤. أسباب هلاك الأمم وسنّة الله في القوم المجرمين /عبد الله التليدي .

١٥.السنن الإلهية في النفس البشريّة /عمر أحمد عمر .

١٦.مجموعة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) / جودت سعيد .

١٧.السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم (كشاف موضوعي)/ زينب عطية محمد.

سبب اختيار البحث

من خلال نظرة فاحصة في هذه الجهود، نرى أنها تصب في أكثرها على الجانب التطبيقي دون التأصيل والتقعيد لضوابط هذا العلم وبيان حدوده، كما أنها تعالج النواحي التاريخية، والإصلاحية، والاجتماعية، والتربوية، ومكانها في التصور الإسلامي، وهي جوانب هامة لا تنكر قيمتها العلمية والعملية، ولكنها بحاجة إلى المزيد من **الأبحاث لتغطية جوانب الموضوع كافة، خاصة في مجال الضوابط والأسس التي تحدد ماهية السنن وأقسامها** ومدى شمولها، وكيفية التعرف عليها، ومدى الترابط والانسجام فيما بينها. لذا أردت أن أسهم في هذا البنيان المتنامي، وأشارك في سد ثغرة من ثغراته، بالبحث في كيفية التعرف إلى السنن الإلهية واستخراجها من النصوص الدالة عليها، وأهمها نصوص القرآن الكريم، التي تفتح الطريق للتعرف إليها من خلال السنة النبوية ووسائل المعرفة الأخرى .وما يقال عن القرآن الكريم يمكن أن يقال عن السنة النبوية، إذ إنّ طريقة التعامل مع النص الشرعي واحدة، كما أحببت أن أدلل بشكل مباشر على مدى الصلة والترابط بين الدين ومسار الحياة الإنسانية، من خلال الكشف عن التنصيص المباشر من القرآن الكريم على السنن الإلهية، حيث هو الأساس الذي يعرف به دين الله .

منهج البحث

ركز الباحث بداية على تحديد مفهوم السنن الإلهية لما له من أهمية في تحديد المطلوب مما ييسر عملية البحث ويجعلها قاصدة قريبة، بعيدة عن الخلط والاضطراب ،ولما كانت معرفة هذه السنن لا يهتدي إليها إلا من أقر بأن لله سننا، وأنها تنسب إليه سبحانه ،وأن الأمور بتقديره وتدبيره، كان لزاما أن نقدم بين يدي تلمسها وتتبعها والتعرف إليها أهم الأسس والمرتكزات التي ينطلق منها الباحث لتحقيق غرضه. وفي ضوء المفهوم وضوابطه قام الباحث بالنظر في طبيعة هذه السنن، وما كان

منها يمكن إدراكه بالحس والتجربة والملاحظة، وقام باستخراج طرق القرآن الكريم في تيسير سبل الوصول إليها والبحث فيها، بإثارة العقل إليها وإزالة الحواجز دونها، ودفع الحوافز إليها، أو الكشف عن دور القرآن الكريم في الوصول إليها، وهو ما يسمى بالسنن التكوينية، وأما ما كان منها لا يخضع للحس البشري، وإنما هو موقوف على الخبر الإلهي، وهو السنن التشريعية، فقد قام الباحث باستقراء أساليب البيان القرآني واستنطاق دلالاتها فيما تنطبق عليه ضوابط التعريف، مسترشدا في ذلك بأقوال المفسرين والبلاغيين. على أن هذه الأساليب لا تدل على السنن الإلهية بإطلاق، وإنما تدل عليها بضوابط محدده كما تدل على غيرها من المعاني. ولا أقول بأنني استوفيت كل ما في الباب، ولكل باحث نظر.

المبحث الأول: مفهوم السنن الإلهية والأسس الضرورية لمعرفتها

١. مفهوم السنن الإلهية

يمكن أن نقف ولو بإيجاز عند مفهوم السنن الإلهية ؛ حيث تعني السنة بمفهومها اللغوي: السيرة حسنة أو قبيحة(٣). وفي الحديث: "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"(٤). ويقول الإمام الرازي: "والسنّة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع"(٥)، ويقول الفيروز أبادي: " هي : الطريقة والسيرة ".(٦) ثمّ بين أصلها في الاستعمال اللغوي فقال: سننت الإبل: أي أحسنت رعيها والقيام عليها ...وأسننت الرمح: جعلته سنانا ...وسنّ الماء على وجهه: صبه صبا سهلا(٧) ويفهم من هذه المعاني: أنها الطريقة المستقيمة التي أصبحت مطردة سهلة ميسورة. ولذا نجد صاحب المنار يقول: "السنن: جمع سنّة ؛ وهي الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة، أو المثال المتبع، قيل إنها من قولهم: سنّ الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب؛ فإنه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد "(٨) وسنّة الله: طريقة حكمته(٩) أو الطريق القويم الذي بينه سبحانه. قال ابن منظور: "سنّ الله سنّة: أي بين طريقا قويما"(١٠). وعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: " والسنّة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول"(١١)، ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال: "**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**"(١٢). ويقول محمد رشيد:

---

٣. ابن منظور، **لسان العرب**، ١٣/٢٢٥ .

٤. مسلم، **الصحيح بشرح النووي**، ك/الزكاة /باب : الحث على الصدقة وأنواعها، ٧/ ١٠٣ ـ١٠٤.

٥. الرازي، **تفسير مفاتح الغيب**، ٩/١٢.

٦. الفيروز أبادي، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، ٣/٢٦٧.

٧. **المرجع السابق**، ٣/ ٢٦٨.

٨. رضا، محمد رشيد، **تفسير المنار**، ٤/١٤٠ .

٩. الفيروز ابادي، **بصائر ذوي التمييز**، ١٣/٢٦٧.

١٠. ابن منظور، **لسان العرب**،١٣/٢٢٥. إبراهيم مصطفى وجماعة، **المعجم الوسيط**، ١/٤٥٥.

١١. ابن تيمية، **مجموع الفتاوي**، ١٣/ ٢٠. وزيدان، د.عبد الكريم، **السنن الإلهية**، ١٣.

١٢. يوسف: ١١١.

"أي إن أمر البشر .. قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام وليس الأمر أنفا كما يزعم القدرية"[١٣]. كما تعرّفها الباحثة زينب عطية بأنها: "الطريقة الإلهية القويمة التي تبدو في نظام الكون المحكم وفي الأمم والتجمعات البشرية وفي الإنسان وما يختص بالإنسان"[١٤].

ويمكن أن نستخلص من مجموع هذه التعريفات: أن السنن الإلهية تشتمل على جانبين؛ الأول: ما يجري عليه أمر البشر من طرق قويمة وقواعد ثابتة تجري عليها أحكام الله بالنظائر للنظائر، ويمكن أن نطلق على هذا الجانب السنن الإلهية، والثاني: النظام الكونيّ العام المحكم الذي أوجد الله عليه الكائنات، وهذا ما يمكن أن نسميه السنن الربانيّة[١٥]. وبين الجانبين انسجام واتفاق تام اقتضاه القَدَر الإلهي الذي قدّر الله عليه الأشياء منذ الأزل.

وهذا يعني أن الحديث عن السنن الإلهية إنما هو حديث عن أفعال الله تعالى الماضية والجارية والمستقبلة في الكون والإنسان والحياة .وقد يكشف العقل بالنظر والتدبر أجزاء متناثرة من أجزاء هذه السنن.

٢. الأسس الضرورية لمعرفة السنن الإلهية

الطريقة السليمة المعصومة لمعرفة السنن الإلهية وأسرارها لا يكون إلا من الخبر الصادق عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، من كتاب الله تعالى، وصحيح السنّة النبويّة الشريفة. ولكي يتيسر الفهم من هذين المصدرين لا بدّ من أسس تتأصل في نفس الباحث تنير له السبيل، قال تعالى: "**ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور**"[١٦]. وهذه الأسس والمرتكزات هي:

أولا: الإيمان بالله

إن المنطلق والأساس الذي ينطلق منه الباحث للتعرف الى سنن الله تعالى هو الإيمان بصاحب هذه السنن وهو الله رب العالمين، الخالق لهذا الكون وما فيه، الذي أبدع وجوده، وأتقن صنعه وأحكم نظامه، جلّ ثناؤه.

وإن حلول نور الإيمان في قلب المؤمن يؤتيه بصيرة يدرك من خلالها ما وراء الظواهر السطحية فيرى يد الله تعالى المدبرة، فيضع الأمور في نصابها. وقد نعى القرآن الكريم على الكافرين قصور علمهم على القشور قال تعالى: "**ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا**

---

[١٣] رضا، **تفسير المنار**، ١٤٠/٤ .

[١٤] عطية، زينب محمد، **أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم – السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم**، ٢٣/١.

[١٥] يرى الدكتور راشد سعيد شهوان: أن مفهوم السنن الربانية الصق بهذه السنن من مفهوم السنن الإلهية، وذلك من خلال ربط السنن بمفهوم الربوبية الذي معناه: الاعتقاد بأن الله هو خالق الخلق ومدبر أمرهم، ومن هذا المفهوم تنبثق السنن ،وليس من مفهوم الألوهية الذي معناه: أن الله وحده هو الجدير بالمحبة والطاعة والانقياد (شهوان، **مدخل إلى السنن الربانية**، ص: ٥) .ولكنني أرى أن السنن التكوينية هي التي تنبثق عن مفهوم الربوبية، وليس السنن جميعها ولذا أطلقت على هذا الجانب اسم السنن الربانية، وأن السنن التشريعية الصق بمفهوم الألوهية، ولذا أطلقت عليها اسم السنن الإلهية، هذا عند التفصيل، أما عند الإجمال فلا فرق بينهما لشدة التلازم بين مفهوم الربوبية ومفهوم الألوهية إذ المقصود نسبتها إلى الله تبارك وتعالى سواء باعتباره ربا أم إلها.

[١٦] النور: ٤٠.

وهم عن الآخرة هم غافلون"(١٧).

كما وصفهم بالبلادة والغباوة وعدم الفهم في مواطن كثيرة وبأساليب متعددة، منها قوله تعالى: "**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**"(١٨).

قال الزمخشري: "فهم كالأنعام في عدم الفقه والنظر للاعتبار"(١٩). وقال سبحانه: "**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم**"(٢٠). وقال: "**ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحقّ من ربهم**"(٢١) وقد سجل عليهم الاعتراف عندما تتكشف الحقائق فقال: "**وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير**"(٢٢).

ونجد موسى عليه السلام يربط الإيمان بالله بنظام الكون وتدبيره في إجابته لفرعون، قال تعالى: "**قال فرعون وما رب العالمين، قال ربّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين**"(٢٣). وقال "**فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثمّ هدى**"(٢٤). وكان من تمام غفلة فرعون حين انفلق البحر لموسى عليه السلام، أن غامر بالاقتحام وراءه غافلا عن يد الله التي خرقت سنّة انسياب الماء حين كان كلّ فرق كالطود العظيم فكان حتفه. فكم يشقي العقل صاحبه حين يعرض عن الإيمان بالله !

وفي هذا يقول الشيخ عرجون:

"والعقل إن لم يعتمد على الإيمان بالله الواحد القهار وهذا الإيمان هو الدعامة لفلسفة القرآن، قد يطوّح به الغرور في مهامة لا معالم لها يهتدي السائرون فيها، ويحسبون السراب ماء، وركام الفراغ جبالا، وظلال الآفاق طرائق لهداية السالكين، يدورون حول أنفسهم حيارى لا يهتدون إلا إذا فاءوا إلى دوحة الإيمان"(٢٥).

ثانيا: الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا وما تدل عليه من الأفعال الحكيمة:

سمّى الله تعالى نفسه بأسماء عظيمة، ووصف ذاته بصفات جليلة، تُعلَم منه سبحانه؛ إما في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ. قال سبحانه "**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**"(٢٦). وقال: "**هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمّا يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى**

١٧.الروم : ٧،٦.

١٨. الأعراف: ١٧٩.

١٩. الزمخشري، **الكشاف**، ١٣٢/٢.

٢٠. محمد : ١.

٢١. محمد: ٣.

٢٢. الملك : ١٠

٢٣. الشعراء : ٢٤،٢٣.

٢٤. طه: ٥٠،٤٩.

٢٥. عرجون، محمد الصادق، **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**، ص١٢.

٢٦. الأعراف : ١٨٠.

يسبح **له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم**"(٢٧). وفي الحديث: "لله تسعة وتسعون اسما ؛ مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنّة"(٢٨).

قال الحافظ ابن حجر نقلا عن الحليمي: "الأسماء الحسنى تنقسم إلى العقائد الخمس:

الأولى: إثبات الباري ردا على المعطلين وهي الحيّ والوارث وما في معناها.

والثانية: توحيده ردا على المشركين، وهي الكافي والعليّ والقادر ونحوها.

والثالثة: تنزيهه ردا على المشبهة، وهي: القدوس والمجيد والمحيط وغيرها.

والرابعة : اعتقاد أن كلّ موجود من اختراعه، ردّا على القول بالعلة والمعلول، وهي الخالق والبارئ والمصور والقوي وما يلحق بها.

والخامسة: أنه مدبر لما اخترع ومصرفه على ما يشاء، وهو القيوم والعليم والحكيم وشبهها"(٢٩).

وهذه الدلالات للأسماء في مجملها إما دالة على الوجود، أو إثبات الكمال، أو سلب النقص أي؛ التنزيه، أو إثبات الأفعال، والأفعال إما خلقا وإيجادا، وإما رعاية وتدبيرا وتصريفا(٣٠). وهذه الأسماء الدالة على الأفعال، هي ذاتها الدالة على سنن الله في خلقه. والوقوف عند هذه الأسماء وما تدل عليه من صفات، بإيمان وتدبر وتأمل له أثره العظيم في إدراك المؤمن لكيفية تدبير الله تعالى لمخلوقاته في إتقان صنعها، وإحكام أمرها، حيث يتنزه الله جل وعلا عن اللعب والعبث والفوضى .قال الله تعالى: "**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق ولكنّ أكثرهم لا يعلمون**"(٣١). وقال: "**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين، لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنّا إن كنّا فاعلين، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون**"(٣٢).

وحين يغفل الإنسان عن صفات الله ولا يقدره حقّ قدره يضل عن معرفة سننه، قال تعالى: "**وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء**"(٣٣) وقال سبحانه: "**وما قدروا الله حقّ قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون**"(٣٤) .

وفي افتتاح الفاتحة وهي أم الكتاب إجمال للربط بين الصفات التي تمدّح بها سبحانه،

---

٢٧. الحشر : ٢٢-٢٤.

٢٨. العسقلاني: ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري** / ك : الدعوات /باب: لله مائة اسم /رقم: ٦٤١٠ ص٢٨٠٤ /ط : بيت الأفكار الدولية .النووي، **شرح صحيح مسلم**: ك/ الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ١٧/٤-٥ ابن ماجة، **السنن** / ك الدعاء باب : ١٠ /أسماء الله عز وجلّ حديث رقم ٣٨٦٠،٣٨٦١ .

٢٩. العسقلاني، **فتح الباري**، م٣/ص٢٨٠٧-٢٨٠٨ / ط/ بيت الأفكار الدولية.

٣٠. حوى، سعيد، الله جلّ جلاله، ١٥٤.

٣١. الدخان: ٣٨-٣٩.

٣٢. الأنبياء: ١٦- ١٨.

٣٣. الأنعام: ٩١.

٣٤. الزمر : ٦٧.

وبين أفعاله التي في العالمين مظهرها(٣٥) حيث قال سبحانه: "**الحمد لله ربّ العالمين**"(٣٦). ولا غرابة إذ نقول إن جميع ما في الكون إنما هو مظهر من مظاهر مقتضيات الأسماء والصفات(٣٧)، ولو أردنا أن نقف عند أسماء الله تعالى؛ الملك، ومالك الملك، والحي، والقيوم، والحكيم، والعليم، والقابض، والباسط، والمعز، والمذل، وغيرها .. في استجلاء مدلولاتها على الأفعال لطال بنا المقام(٣٨).

ثالثاً: الإيمان بالقدر(٣٩): إذا علمنا أن القدر هو: "تعلق علم الله تعالى أزلاً بالأشياء قبل أن توجد مع ربطها بأسبابها ومسبباتها وأن القضاء هو ظهورها في الواقع حسب العلم الإلهي"(٤٠)، أدركنا مدى الصلة الوثيقة والترابط الأكيد بين السنن الإلهية والقدر، وإذا كشف الله تعالى بأساليب متنوعة عن ربط الأسباب بالمسببات كانت إشارة لأولي الألباب إلى بعض الأمور التي جرى بها القدر على سبيل الإجمال لا على التعيين حيث إن تعيين خروج الأشياء على الصورة التفصيلية يبقى ضمن إطار الغيب الذي اختص الله تعالى بعلمه، ومن المحقق أن إنكار القدر يعني غفلة الإنسان عن إدراك ربط الله تعالى الأسباب بالمسببات، فيترتب علية غفلته عن إدراك أسرار السنن الإلهية و فهمها، والله يقول: "**إنا كل شيء خلقناه بقدر** "(٤١).

وجاء في الحديث الشريف الذي يرويه يحيى بن يعمر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين سأله قائلاً: "أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء منّي، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحدٍ ذهباً فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ثم ساق الحديث"(٤٢).

ومرادهم أن الأمر أنف أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى(٤٣)، فانظر كيف يضل نُفاة القدر عن إدراك تدبير الله وعلمه الذي وسع كل ما هو كائن وما سيكون.

رابعاً: ومن أهم الأسس التي تساعد على فهم السنن الإلهية والتعرف اليها لأهمُ مصدر من مصادر الدلالة عليها، ذلكم هو **القرآن الكريم** الذي أنزله الله تبيانا وهدى للناس، حيث يكشف الحقائق ليخاطب الناس أجمعين ويعرض لهم كتاباً مفتوحاً معلناً، ليدخل الفكر البشري إلى صفحة الكون المفتوحة، وإلى

---

٣٥. الألوسي، **روح المعاني**: ١/٧٧ وما بعدها. البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل بحاشية الكازروني**, ١/ ٢٥-٢٦.

٣٦. الفاتحة: ١.

٣٧. سالم، عبد المقصود محمد، **في ملكوت الله مع أسماء الله الحسنى**، ٧-٨.

٣٨. **المرجع السابق**، و الزجاج، أبو اسحق إبراهيم، **تفسير أسماء الله الحسنى**.

٣٩. الجزائري، أبو بكر، **عقيدة المؤمن**، ٤٠٦.

٤٠. البوطي، د.محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية**، ١٣، زيدان، د.عبد الكريم، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، ص ٢١.

٤١ .القمر: ٤٩.

٤٢. النووي : **شرح صحيح مسلم** / ك، الإيمان / باب: القدر : ١/١٥٠-١٦٠.

٤٣. النووي، **شرح صحيح مسلم**، ١/١٥٦.

واقع الحياة البشرية الماضية والحاضرة لنأخذ منها نوراً كاشفاً للمستقبل(٤٤).

انظر كيف قرن القرآن العظيم بين السنن الإلهية وبين الغرض الأكبر من القرآن، وهو الهداية والبيان في موضعين؛ الأول: في سورة آل عمران حيث قال: "**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**"(٤٥). والثاني في سورة النساء وهو قوله تعالى: "**يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم**"(٤٦). فالآية الأولى دلت على أن البيان للناس جميعا، وأما الهداية فهي للمتقين خاصّة ؛ وذلك أن تحقق الهداية إنما يكون بقبول المعرفة والدلالة والانتفاع بها دون الإعراض عنها وعن مقتضياتها، قال الراغب: "ولما كانت الهداية والتعلم يقتضي شيئين؛ تعريفا من المعرِّف وتعرفا من المعرَّف وبهما تمّ الهداية والتعليم"(٤٧). وفي الآية الثانية جمع للمؤمنين الهداية والبيان، حيث الخطاب موجه للمؤمنين.

وفي انتفاع الأتقياء وحدهم بالهداية القرآنية إلى السنن الإلهية خاصّة والى الهداية الربانية عامّة(٤٨) يقول الله تعالى في الكتاب العزيز: "**ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين**"(٤٩).

وحول هذا المعنى يقول الشهيد سيد رحمه الله: "إن الكلمة الهادية لا يستشرفها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى، والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب التقيّ الذي يخفق لها ويتحرك بها "(٥٠).

من هنا ندرك أن الإيمان والتصديق بالقرآن ضرورة لا بد منها لإدراك السنن الإلهية وفهمها، خاصّة المتعلقة بالمجال التكليفي للإنسان(٥١) وشتان بين قلب يتدبر بنور وبصيرة، وقلب أعمى: "**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**"(٥٢). "**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب**"(٥٣).

خامسا: الإيمان بشمول الهداية القرآنية لجميع الجوانب التي يفتقر إليها الإنسان، لقوله تعالى: "**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**"(٥٤). ولقوله تعالى: "**ما فرطنا في الكتاب من شيء**"(٥٥) وهذه الجملة من الآية مرتبطة بما قبلها، وهي قوله تعالى: "**وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم**"(٥٦). أي أنها تسير

---

٤٤. قطب، سيد، **في ظلال القرآن**،٨٣/٢ .

٤٥. آل عمران: ١٣٧-١٣٨.

٤٦. النساء: ٢٦.

٤٧. الأصفهاني، الراغب، **المفردات في ألفاظ القرآن**، ٨٣٨.

٤٨. النيسابوري، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، ١٤٣/١ -١٤٤ .

٤٩. البقرة : ٢.

٥٠. قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، ٨٤/٢ .

٥١. لأن التكويني يمكن التعرف على بعضه من خلال البحث والنظر.

٥٢. محمد: ٢٤.

٥٣. الرعد : ١٩.

٥٤. النحل : ٨٩.

٥٥. الأنعام : ٣٨.

٥٦. الأنعام : ٣٨.

على سنن منتظمة. قال أبو السعود: "أي كل أمّة مثلكم في أن أحوالها محفوظة وأمورها مقننة، ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد، ومنتظمة في سلك التقديرات الإلهية، والتدبيرات الربانيّة". ثم يقول عن جملة (ما فرّطنا في الكتاب من شيء): إنها جملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها)[57].

وهذا يعني أنه كما بين أنّ جميع دواب الأرض وطيورها أمم أمثالنا تخضع لضوابط وقواعد ومناهج، فإن القرآن قد اشتمل على بيان عموم هذا النظام لكل شيء، وهذا العموم مستفاد من (من) الاستغراقية بعد التخصيص المذكور. ويتضح هذا من قول الألوسي رحمه الله مفسرا لهذه الآية: " التفريط: التقصير .. وقد ضمن هنا معنى أغفلنا وتركنا .. ومن زائدة[58] للاستغراق"[59]. وفي الحديث الذي يرويه عليّ رضي الله عنه يقول: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ألا إنها ستكون فتنة. فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال: كتاب الله ؛ فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل "[60]. لا شك أن القرآن لم يرد فيه صراحة جميع أنباء ما بعد نزول القرآن، حيث الأخبار الصريحة عن أمور الغيب في ذلك محدودة، وشمول القرآن لذلك إنما يعرف بالدلالة والاستنباط وغلبة الظن، وذلك قياسا على سنن الله فيمن قبلنا. قال تعالى: "**فاعتبروا يا أولي الأبصار**"[61].

ومثل هذا يمكن أن يقال عن جميع السنن الاجتماعيّة بمختلف أنواعها من سياسيّة واقتصاديّة وحضاريّة وعمرانيّة ونصر وهزيمة وخذلان وغيرها، بخلاف السنن الكونيّة الماديّة التي يمكن الجزم بنتائجها، كتحديد موعد غروب الشمس وشروقها، أو إحراق النار للحطب، أو انصباب الماء من أعلى الجبل إلى أسفله، وذلك لخضوع السنن الاجتماعيّة إلى أسباب كثيرة ومتشعبة ومتشابكة. ولهذا يغفل أكثر الناس عن سنن الله في الاجتماع البشري، وفي تصرفات الأفراد

---

[57] ٥٧. أبو السعود، **التفسير**،م٢ ج٣/١٣١ .الألوسي، **روح المعاني**، ٧/١٤٥.

[58] ٥٨. لا نوافق الألوسي على القول بزيادة (من) حيث يتعارض ذلك مع إفادتها العموم، وقد جرى في ذلك مجرى النحاة من حيث الإعراب، وهذا غير سديد لأن ما تفيده من معنى الشمول والعموم والعمق النفسي لا يتم من دونها. عباس، د. فضل حسن، **لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن**، ١٥٨ – ١٦١.

[59] ٥٩. الألوسي، **روح المعاني**، ٧ /١٤٤.

[60] ٦٠. الترمذي، محمد بن عيسى، **الجامع**، ك: فضائل القرآن /باب: ما جاء في فضل القرآن .حديث رقم : ٢٩٠٦ ص٤٦٤ ط/ بيت الأفكار الدولية. ورواه الإمام أحمد، **الفتح الربانيّ**، ١٨/٢-٣. قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .وقال الألباني: ضعيف الإسناد. وقال البنّا: إنما قال ذلك الترمذي لأنه رواه من طريق حمزة بن حبيب الزيات ... ففيه حمزة ضعّفه بعضهم في الحديث، وإن كان إماما مشهورا في القراءات، وفيه ابن أخي الحارث مجهول، وهذان ليسا في مسند الإمام أحمد ،لكن جاء فيه الحارث بن عبد الله الأعور وقد تكلموا فيه، بل كذّبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده لا أنه تعمد الكذب في الحديث، وأخرجه أيضا الطبراني في الكبير، وفي إسناده عمرو بن واقد، متروك .وله شاهد عند الحاكم في المستدرك من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ ﷺ. فذكر نحوه، قال الحاكم: هذا حديث الإسناد .وتعقبه الذهبي فقال: إبراهيم بن مسلم ضعيف ،الفتح الربّانيّ ،أحمد عبد الرحمن البنّا: = =٣/١٨ .أقول: الضعيف إذا تعددت طرقه ارتقى إلى الحسن لغيره .صحيح

[61] ٦١. الحشر: ٢.

والأمم، ويظنون أن أمورهم لا تخضع كما تخضع الظواهر الكونيّة لقانون الأسباب والمسببات(٦٢).

ولا شك أن معرفة السنن الإلهية جزء من الدين وركن من الهداية التي يحتاجها الإنسان سواء بالاستدلال على عظمة الصانع وإحكام خلقه أو بالدلالة على طريق تعامله مع العبد ومحاسبته للمكلفين من خلقه. وينوه العلامة الألوسي إلى أهمية ذلك من خلال أحوال الأمم مع أنبيائها حيث تمثل جزءاً هاماً من السنن الإلهية فيقول: "والمراد من (كل شيء) جميع ما يتعلق بأمور الدين، أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم ــ عليهم السلام– "(٦٣).

المبحث الثاني: كيفيّة التعرّف إلى السنن الإلهية

١. تقسيم السنن الإلهية

يمكن تقسيم السنن الإلهية بمجموعها العام إلى نوعين من السنن :

الأول: السنن التكوينية، وهي سنن النظام العام الذي تخضع له الكائنات كلها بوجودها الماديّ والفطريّ، ضمن النظام الكوني العام والنظام الكوني الجزئي، لكل نوع من أنواع المخلوقات التي تدخل في منظومة النظام الكوني الشامل، وهو ما يسميه الدكتور زيدان الوجه الأول الذي تخضع له جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية(٦٤) .

الثاني: وهو ما يختص بالإنسان أو بالعقلاء مما يترتب على موقفهم من التشريع الإلهي ومدى خضوعهم له أو إعراضهم عنه. وهو ما يعبر عنه زيدان أيضا بالوجه الثاني ويعرفه بأنه الذي يتعلق بخضوع البشر له باعتبارهم أفرادا وأمماً وجماعات(٦٥). ويمكن أن نعبر عنه بأنه **السنن الإلهية التشريعية**.

وكلا هذين النوعين من السنن الإلهية يخضعان لمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، ويدخلان ضمن القضاء والأمر الكونيّ، أو القضاء والأمر التشريعيّ. فالسنن الإلهية التكوينيّة هي الوجه الذي يظهر منه علم الله وقضاؤه وقدره وأمره الكوني.

والسنن الإلهية التشريعية؛ هي الوجه الذي يظهر منه علم الله تعالى وقضاؤه وقدره وأمره التشريعي(٦٦).

وتوضيحاً لذلك فإن الله تعالى لما أراد خلق الكائنات أمرها أن تكون على كيفية هو يريدها، وبنظام وتقدير هو قدره فكانت كما أراد .ويدل على ذلك قوله تعالى: "**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**"(٦٧) وقوله تعالى: "**فقضاهن سبع سماوات في يومين**"(٦٨). فمثل هذا النوع من السنن أو القانون والتنظيم الإلهي يجري على الأشياء كلها في خلقها وتكوينها وحدودها لا يتخلف.

ومنه خلق الإنسان على هيئة مخصوصة، وحركة الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار، وتخصيص كل من الأحياء والجمادات

---

(٦٢) ٦٢. زيدان، د.عبد الكريم، **السنن الإلهية**، ٢٤

(٦٣) ٦٣. الألوسي، **روح المعاني**، ٢١٤/١٤ .وزيدان : ١٦ .

(٦٤) ٦٤ .زيدان، **السنن الإلهية**،٧.

(٦٥) ٦٥ .المرجع السابق، ١٢.

(٦٦) ٦٦. الحنفي، **شرح العقيدة الطحاوية**، ٥٠٥ .

(٦٧) ٦٧ .يس: ٨٢.

(٦٨) ٦٨ .فصلت : ١٢.

بخصائصها، وهذا هو النوع الأول وهي السنن الإلهية التكوينية .

وأما النوع الثاني وهو السنن الإلهية التشريعية؛ فهو ما أمر الله به تشريعاً وتكليفاً للعقلاء، وهم الإنس والجن. وجعل لهم المشيئة في الطاعة والمعصية، وأعطاهم القدرة على الاختيار، فرتب عليها أمر السعادة والشقاء، والثواب والجزاء، واليسر والعسر. وقد يقع بها أمر الله كما يحب وقد لا يقع، أو يقع فيها القضاء كما يحب أو لا يقع، فمن ذلك قوله تعالى: "**إن الله يأمر بالعدل والإحسان**"(٦٩). وقوله تعالى: "**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا**"(٧٠). فإذا أجاب العبد وأطاع كانت له حسن العاقبة، وإذا أعرض وعصى كان له سوء العقاب. قال الله تعالى: "**فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى**"(٧١). وهو الأمر الذي خاطب الله به آدم وذريّته منذ أخرجهم إلى عالم التكليف فقال: "**قلنا اهبطوا منها جميعا فإمّا يأتينكم منّي هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .والذين كفروا وكذبوا بئاياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**"(٧٢). ويترتب على هذا التقسيم الاختلاف في طريقة التعرف على السنن الإلهية في كل نوع.

٢. كيفية التعرف على السنن الكونية ودور القرآن الكريم في ذلك.

السنن الكونية لنظام الكون الكلي أكبر وأوسع مدى من إدراك الإنسان، ومن الصعوبة البالغة أن يدرك الإنسان وأن يكتشف كل حقائق الكون، ولا يعني هذا عدم إدراكه لبعضها، فقد منح الله للإنسان عقلا يجول به في آفاق الكون، وفتح له أبوابا من العلم ما جعله يكشف الكثير من أسرار الكون ونواميسه وخفاياه، قال سبحانه: "**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**"(٧٣).

وأما السنن الكونية الجزئية لكل نوع أو صنف من أصناف المخلوقات المحيطة بالإنسان أو الإنسان نفسه مما تقع تحت حواس الإنسان، فيمكن أن تكون ميداناً لدراسة الإنسان وتجاربه؛ فاكتشاف أطوار نبات معين ونظام حياته، أو حيوان، أو مظهر من مظاهر الطبيعة، أو عنصر من العناصر؛ أي ما يدخل ضمن كل ذلك مما يمكن أن يتعرف عليه الإنسان بالملاحظة والتجربة والاستنتاج(٧٤). ولكن باعتبار عوامل أخرى متعددة كالزمن والخبرة ووسائل البحث.

ولقد توصل الإنسان إلى اكتشاف كثير من السنن الجزئية المتعددة التي لا حصر لها، كالذرة ونظامها، والخلية وما يتعلق بها، والأكسجين ودورته في الطبيعة، وتكوّن المطر وحركة الرياح. وكذلك السنن الكونية

---

٦٩. النحل: ٩٠.

٧٠. الاسراء: ٢٣.

٧١. طه: ١٢٣-١٢٤.

٧٢. البقرة: ٣٨-٣٩.

٧٣. فصلت: ٥٣.

٧٤. الزين، سميح عاطف، الإسلام وثقافة الإنسان، ص٢٨٢.

الكبرى مما توصل الإنسان إلى اكتشاف بعضها كالجاذبية ونظامها، سواء في الأرض أو بين الكواكب والنجوم، على أوسع مجالاتها ونظام الطرد المركزي، وما لهذين النظامين من اتساق في ضبط حركة الكون والأشياء واتزانها وحفظها. أقول هذا كله ممكن ولكن بعد أجيال وجهود.ولم يتوصل الإنسان إلى معرفة كثير من هذه الظواهر إلا في العصور المتأخرة.

ولكن ما دور القرآن في الكشف عن هذه السنن ؟ يصف النبي ﷺ القرآن "بأنه الذي لا تنفد جدته ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد"(٧٥) كما يعد القرآن بالكشف عن كثير من آياته الدالة على أنه وحي السماء، وأنه كلام الله إذ يقول: "**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**"(٧٦). ولبلوغ هذه النهاية نجد القرآن الكريم يسلك سبلا متعددة منها:

١. إثارة العقل البشري إلى التفكير والتأمل والتدبر في موجودات الكون، وأن لا يبقى متهيباً أو متوجسا من البحث والنظر في كثير من الظواهر المبثوثة في الكون، يقول الله تعالى: "**قل انظروا ماذا في السماوات والأرض**"(٧٧). ويقول: "**فلينظر الإنسان إلى طعامه**"(٧٨). "**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**"(٧٩). ويقول: "**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**"(٨٠).

٢. يعرض القرآن لكثير من الحقائق التكوينية في الإنسان والآفاق كآيات دالة على وجود الله تعالى(٨١) وعظمته وتدبيره، ووجوب الخضوع والإذعان له تخاطب العقل البشري، فيفهم منها بقدر يتزايد كلما ازدادت معرفته وتوسعت دائرة أبحاثه، وتطورت وسائل المعرفة والبحث لديه. وكلما استقرت الحقائق العلمية كشفت مدى التوافق الدقيق مع آيات القرآن "**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**"(٨٢). وبهذا يمكن للعقل البشري أن يتوصل إلى اكتشاف كثير من السنن الإلهية في المحسوسات التي يمكن أن تصل إليها يده وتخضع لمدى حواسه، ولا يزال الكثير من هذه الحقائق يتكشف مع الزمن.

ولتحقيق هذا الغرض نجد القرآن العظيم يضع مادة علمية غزيرة تحت متناول يد الإنسان، فيتحدث عن كثير من آيات الله في الكون وسنن الله تعالى في المخلوقات التي يمكن للإنسان أن يقف عندها متأملاً باحثاً، من ذلك حديث القرآن عن الإنسان نفسه، وعن النبات وعن السماوات والأرض والجبال

---

٧٥. سبق تخريجه.

٧٦. فصلت: ٥٣.

٧٧. يونس: ١٠١.

٧٨. عبس: ٢٤.

٧٩. الذاريات: ٢١.

٨٠. العنكبوت: ٢٠.

٨١. الوجود المادي لهذا الكون بهذا الإتقان أكبر الأدلة على وجود الله تعالى، لأنّه لا يمكن للمادة وهي جامدة صماء لا تعقل، أن تضع هذا القانون الهائل الدقيق لهذه الموجودات. وإنما المعقول المقبول أن يكون واضع هذا القانون هو خالق هذه الموجودات. زيدان، **السنن الإلهية**، ص٨.

٨٢. فصلت: ٥٣.

والرياح والماء. ففي الحديث عن الإنسان يقول: "**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً**"(٨٣). ويقول أيضاً: "**يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**"(٨٤). ويقول: "**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**"(٨٥). وآيات أخرى غيرها في هذا المجال الذي كان موضع دراسة وبحث و تحليل وتقصٍ دقيق عند علماء الطب والتشريح، وكانت النتائج اكتشاف التطابق المذهل بين القرآن والحقائق العلميّة، والتعبير الدقيق الذي تحمله الألفاظ القرآنيّة بما لا نجد أوفى منها بالغرض، ولا يجد المنصفون مفراً من الاعتراف والإقرار بأن هذا القرآن هو وحي يوحى، إذ لم يكن العلم في عصر محمد ﷺ قادراً على التوصل إلى مثل هذه المعلومات البالغة في الدقة(٨٦).

ونجد القرآن كذلك يتحدث عن الكون، سواء في أصل تكوينه ونشأته أو نظام حركته واستقراره واتزانه، فمن ذلك قول الله عزّ وجل: "**أولم ير الذين كفروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما**"(٨٧). كما يقول: "**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون**"(٨٨).

ويقول عن حركة الشمس والقمر والكواكب والنجوم: "**الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون**"(٨٩) ويقول: "**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**"(٩٠). وأمثال هذه الآيات التي تتحدث بتفصيلات متكاملة عجيبة لم تكن مفهومة بمعناها الواسع العلمي حين تنزل القرآن(٩١).

---

٨٣ .الإنسان: ٢.

٨٤ .الحج: ٥.

٨٥. المؤمنون: ١٢-١٤.

٨٦. الجميلي، السيد، **الإعجاز الطبّي في القرآن**، ص ٥٩،٦٥ وغيرها. محمد سامي محمد علي، **الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، ص٩٩، ط: دار المحبة /دمشق.

٨٧. الأنبياء: ٣٠.

٨٨. الذاريات: ٤٧.

٨٩. الرعد : ٢.

٩٠. يس: ٣٧-٤٠.

٩١. انظر مثلا تفسير قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما..) (الأنبياء : ٣٠) من تفسير ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت السماوات رتقا لا تمطر وكانت الأرض رتقا لا تنبت فلما خلق للأرض أهلا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات. ابن كثير ١٧٧/٣. وفي تفسير قوله تعالى: (الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها) (الرعد: ٢) قال ابن كثير: قال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة يعني بلا عمد. وكذا روي عن قتادة. ثم قال ابن كثير : وهو اللائق

وليس ذلك عيباً في علماء ذلك العصر، فإن الكشف عن حقيقة هذا الكون وأبعاده يحتاج إلى جهود أجيال وإمكانيات علمية هائلة، وإنما فسر السابقون بمقتضى ما يظهر لهم، ولو كنا في عصرهم لما وسعنا أن نقول أكثر مما قالوا، ولكن الأمر الذي يدهش ويجعل العقل البشري يخر ساجداً لله خالق هذا الكون عندما يتقدم العلم بوسائله الحديثة يكشف عن خفايا وأبعاد هذا الكون، وعندما يقارن ما توصل إليه من حقائق علميّة، ونتائج مسلّمة، مع النصوص القرآنية يجد المطابقة والدقة العجيبة التي تشهد بعظمة الإعجاز القرآني، ولا يجد المنصف إلا أن يقر أن هذا القرآن تنزيل من عليم خبير، وأن الكون من تدبير حكيم قدير. وأن محمداً ﷺ هو رسول الله حقاً(٩٢) "**وما ينطق عن الهوى .إن هو إلا وحي يوحى**"(٩٣).

كذلك يمكن التعرّف إلى سنن الله في الجبال والمياه والبحار والنبات والحيوان والهواء .. وغيرها من المخلوقات المحيطة بالإنسان، بل وفي الإنسان نفسه، وتم للإنسان التعرف على كثير من ذلك من خلال البحث والملاحظة، وكانت النتائج تصب في دائرة السنن المنتظمة والقواعد المطردة، التي كان القرآن قد كشف عنها في آياته المقروءة المتفقة مع آيات الله المرئيّة المبثوثة في صفحات الكون. وصدق الله "**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**"(٩٤).

٣. يعطي القرآن نماذج مما يدركه الإنسان ويمكن أن تصل إليه وسائل بحثه، على أمور أخرى قد تكون متشابهة في نظامها إلى حد كبير؛ لأمور لا يمكن أن تصل إليه وسائل البحث الإنساني، كأبعاد الكون وحقائق المجرات والنجوم من خلال نموذج قريب في الشمس والقمر يعطي صورة عن نظام بديع لعالم أوسع، قال تعالى: "**وكل في فلك يسبحون**"(٩٥) كما يمكن أن يدرك أسرار نظام الكون وحركته الدائمة واتزانه من خلال نظام الذرة.

انظر في الوصف القرآني لحركة الشمس والقمر في قوله تعالى: "**وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى**"(٩٦). وقوله: "**والشمس تجري لمستقر لها**" ثم يقول: "**وكل في فلك يسبحون**"(٩٧) إذ يتحدث عن حركة الدوران في فلك وفق نظام ثابت متوازن مع عالم الكون ،يتحدث أولاً عن الشمس والقمر، ثم يعمم النظام الكوني ليشمل سائر النجوم والكواكب (وكل في فلك يسبحون). يقول في ذلك الصادق عرجون:

بالسياق. ابن كثير: ٤٩٩/٢. في حين فسرها في العصر الحديث محمد عبده على وفق نظام الجاذبيّة. **إعجاز القرآن الكريم**، د.فضل عباس : ٢٦٠ .

٩٢. أبو خليل، شوقي، **الإنسان بين العلم والدين**، ص: ٢٧ . علي، محمد سامي محمد، **التفسير العلمي في القرآن الكريم**، ص: ٣٢. خضر، عبد العليم عبد الرحمن، **المنهج الإيماني للدراسات الكونيَة في القرآن الكريم**. نوفل، عبد الرزاق، **الله والعلم الحديث**، ص: ١٣٩.

٩٣. النجم: ٣-٤.

٩٤. فصلت : ٥٣.

٩٥. يس : ٤٠.

٩٦. الرعد: ٢.

٩٧. يس: ٣٨-٤٠.

"فمستقر الشمس في جريها هو مدى سيرها الذي تنتهي إليه ولا تتجاوزه في حركتها المقدرة لسبحها في فلكها الخاص بما يحقق التوازن بينها وبين عالمها وسائر عوالم السماوات والأرض وما بينهما في تقدير العزيز العليم. وكذلك منازل القمر في سيره قرباً وبعداً وصغراً في رأي العين وكبراً حتى إذا بلغ آخر منزل منها بدا دقيقاً باهت النور منقوساً"(٩٨).

ثم يقول: (وجاءت فاصلة الآية الثالثة لترد ما خص بعض الكائنات من سنن الله إلى العموم والتوازن في نظام الكون فتقول: (وكل في فلك يسبحون)، والشمس والقمر في تعبير القرآن الكريم نموذج لعالم الكواكب في توازن النظام الكوني، فما ثبت لهما من حظ في سنن الله يثبت لغيرهما من سائر الكواكب في مداراتها(٩٩) .

٤. وأحياناً تجد القرآن يعطي العقل البشري حقائق على صورة قاعدة ثابتة قطعية مسلمة، ولكنه مع ذلك لا يحجر على العقل أن يبحث ويدّبر ويحلل ويمحص ويجري التجارب بأوسع ما لديه وآخر ما توصل له من وسائل البحث.

استمع إلى القرآن حين يقول: "**وجعلنا من الماء كل شيء حي**"(١٠٠). واستمع إليه أيضاً حين يقول: "**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**"(١٠١). وحين يقول: "**إنا كل شيء خلقناه بقدر**"(١٠٢). أو يقول: "**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم**"(١٠٣).

انظر كيف يختصر القرآن الكريم على العقل البشري الطريق ويريحه من عناء البحث والنظر، فيما يعسر عليه الوصول إليه بسهولة أو يتجاوز حدود طاقته وإدراكه ويعطيه في وقت قصير ما لا يمكن أن يجنيه في عمر طويل(١٠٤).

وحين نطالع ما توصل إليه الإنسان حول هذه القواعد العمومية في أوضاع المخلوقات ونظمها نجدها تزيد الباحث المنصف يقيناً، بأن هذا القرآن من عند الله وأنه يكشف كشفاً دقيقاً عن كل ما يتحدث عنه.

٥. إعلام الإنسان أنه السيد المستخلف في الأرض، وأن ما على الأرض أو في الكون إنما هو مسخر له؛ ليدفعه إلى اكتشاف أسراره وكيف ينتفع به، كما زوده بالوسائل التي تمكنه من ذلك، ومنحه الثقة وأعلمه بأهليته لهذا الواجب. وهذه الحوافز دلت عليها آيات كثيرة في القرآن الكريم فالاستخلاف دل عليه قوله تعالى: "**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة**"(١٠٥). والتسخير دل عليه قوله تعالى: "**وسخر لكم ما في السماوات وما في**

---

٩٨. عرجون، محمد الصادق، **سنن الله في المجتمع**، ص ٢١، ٢٢.

٩٩. المرجع السابق.

١٠٠. الأنبياء: ٣٠.

١٠١. الذاريات : ٤٩.

١٠٢. القمر: ٤٩.

١٠٣. الأنعام: ٣٨.

١٠٤. الدسوقي، فاروق أحمد، **قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة في الكتاب والسنة**، دار الدعوة، ص٣٣.

١٠٥. البقرة: ٣٠.

الأرض جميعا منه"(١٠٦). وفي مجال تزويده بالوسائل قال: **"وعلم آدم الأسماء كلها"**(١٠٧) وقال: **"علم الإنسان ما لم يعلم"**(١٠٨) وقال: **"فجعلناه سميعا بصيرا"**(١٠٩) وقال: **"وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة"**(١١٠)وفي التكريم يقول: **"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"**(١١١).

ومجموع هذه الآيات يدل على منحه الثقة والأهلية مما يدفعه إلى سبر غور الأشياء لمعرفة كيفية استثمارها والإفادة منها.

والثمرة المترتبة على هذا الدفع القرآني للعقل البشري، إنما هي تمهيد السبيل أمامه وتحفيزه وإعانته على اكتشاف هذه السنن والأسرار الكونية، وربطه بخالقه، وإعانته على رد الأمور إلى موجدها ونسبة الإبداع والتقدير والتدبير إلى منشئه، وهو بذلك يوجهه إلى صحة نسبة السنن إلى باريها جل وعلا، فبدلاً من أن يبقى العقل البشري متخبطاً في أوحال المادة لا يعلم من الكون إلا مظاهره، يضعه وجهاً لوجه أمام حقيقة لا يستطيع ردها، **"حتى يتبين لهم أنه الحق"**(١١٢)، **"ذلك تقدير العزيز العليم"**(١١٣)، **"صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون"**(١١٤).

٣. كيفية التعرف إلى السنن التشريعية من خلال القرآن:

إن العقل البشري حين يعمل في عالم المادة إنما يعمل في عالم يمكن أن يعرفه، لأنه مجهز بوسائل الحس للمادة بأشكالها ولديه القدرة على تطوير وسائل بحثه وتجاربه ليعرف قوانينها ونظمها. أما حين يعمل في عالم الإنسان أو على الأخص العالم الميتافيزيقي(١١٥) أو عالم الغيب فإنه يعمل في متاهة واسعة بالقياس إليه إذ هو غير مجهز من تلقاء نفسه إلى إدراك حقيقتها الهائلة(١١٦).

ومن هنا تبرز أهمية إرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لإرشاد الخلق وهدايتهم إلى معارف الغيب، وسنن الله تعالى في تكليف العقلاء ومؤاخذتهم على وفق هذا التكليف، بما يصلح شؤونهم، ويكفل لهم السعادة في دنياهم وآخرتهم، إذ يفتقر فيه الإنسان إلى الهداية الربانية حيث لا سبيل له إلى ذلك سواه(١١٧).

ولا شك أن بين معرفة السنن الكونية وصحة نسبتها إلى باريها ،وبين السنن التشريعية التكليفية صلة وثيقة؛ حيث تعد

---

١٠٦ .الجاثية: ١٣.

١٠٧ .البقرة :

١٠٨ .القلم : ٤.

١٠٩ .الإنسان: ٢.

١١٠ .الملك : ٢٣.

١١١. الإسراء : ٧٠.

١١٢. فصلت: ٥٣.

١١٣. يس : ٣٨.

١١٤. النمل : ٨٨.

١١٥. علم الميتافيزيقيا هو العلم الذي يبحث فيما وراء الطبيعة أو فيما وراء هذه الحياة من أسرار وما يشاهد في الإنسان من غرائب، نوفل، عبد الرزاق، **الله والعلم الحديث**، ٢٠١.

١١٦. قطب، سيد، **المستقبل لهذا الدين**، ٨٣. والدسوقي، فاروق أحمد، **قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة**، ٣٢ -٣.

١١٧. عباس، د. فضل حسن، **إعجاز القرآن**، ٩.

السنن الكونية دليلاً وحجة على الإنسان في حمله على الإذعان والإقرار بما يجب عليه لله من طاعة وخضوع، وما يقيم عليه الحجة بأن الذي أبدع نظام الكون بغاية الدقة والإحكام، هو القادر على أن يرسم للإنسان منهاج حياته الذي يصلح له، ويهديه إلى حقائق لا يمكن أن يدركها عقله المحدود.

وبهذا فإن السبيل إلى معرفة هذا النوع من السنن أعني السنن التشريعية التكليفية لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال الوحي، بخلاف السنن الكونية التي يمكن للعقل أن يصول فيها ويجول. والوحي الإلهي الذي نعتمد عليه في معرفة هذه السنن هو القرآن العظيم، والسنة النبوية الشريفة(١١٨). ويمكن أن نجمل الطرق التي نستخلصها من هذين المصدرين بما يلي:

١. الإخبار الإلهي أن الأمور تخضع لسنن إلهية وليست عشوائية، وأن هذه السنن ثابتة مطردة بما يمكن للعاقل أن يدرك أوجه الربط والمقارنة والقياس بين الوقائع المتشابهة. قال الله تعالى: "**سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تحويلاً** "(١١٩) وقال: "**فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً**"(١٢٠) وقال: "**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** "(١٢١) .

٢. الإخبار عن أمر مطرد بالأسلوب الخبري المتضمن ربط العلة بالمعلول، وذلك مثل قوله تعالى: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم"(١٢٢). يقول الشهيد سيد قطب بعد أن ذكر التمكين الذي وقع للنبي ﷺ والصحابة الكرام رضي الله عنهم: " لقد تحقق وعد الله مرة وظل متحققاً وواقعاً ما قام المسلمون على شرط الله ... ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة ... ولا يقف في وجهه قوة من قوى الأرض جميعاً "(١٢٣). ولذلك عقب عليه سبحانه بقوله: "لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض"(١٢٤). ومثل قوله: "وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما ءاتاكم "(١٢٥). ومنها قوله تعالى: "وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم"(١٢٦) هذا الوعد بأمر يؤدي إلى السعادة الأخروية ،ولما كان موجهاً إلى ذوي صفة ليسوا محصورين بعصر أو قطر، أخذت صفة الاطراد والعموم والثبات، فكانت سنة إلهية تنبئ عن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات على مدار الحياة البشرية كلها.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: "**كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي**

---

١١٨. زيدان، **السنن الإلهية**، ١٥.

١١٩. الأحزاب: ٦٢.

١٢٠. فاطر: ٤٣.

١٢١. آل عمران : ١٣٧.

١٢٢. النور: ٥٥ .

١٢٣. قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، ١٢٠/٦ .

١٢٤. النور: ٥٧.

١٢٥ .الأنعام : ١٦٥.

١٢٦ .المائدة: ٩.

عزيز)(١٢٧). وقد يستعمل فعل قضى الدال على أن الأمر قد قدر مع ربط الأسباب بالنتائج، كما في قوله تعالى: "**وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ..**"(١٢٨). فهذه الآيات دلت على سنة ثابتة قضت إليهم كلما علوا بالفساد حل بهم العقاب الموعود ثم يعقب على ذلك ليؤكد أنها سنة مطردة بقوله: "**وإن عدتم عدنا**"(١٢٩).

ويفهم من ذلك أن السنة الإلهية في كل أمة أو جماعة تعلو فتفسد أن يكون مصيرها الهلاك والعقوبة العاجلة التي يهيئ الله تعالى أسبابها بما يستحق المفسدون .ومن هذا النوع قوله تعالى: "**إن الله يدافع عن الذين آمنوا**(١٣٠).ومنه قوله تعالى: "**وجزاء سيئة سيئة مثلها**(١٣١). وفي قوله تعالى: "**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**"(١٣٢). يقول الإمام أبو السعود: "كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكي؛ من فروع حكم كليّ تقتضيه الحكمة، وهو أن شأننا المستمر أن ننصر رسلنا وأتباعهم (في الحياة الدنيا) بالحجة والظفر، والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي، وغير ذلك من العقوبات. ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحانا إذ العبرة إنما هي بالعواقب وغالب الأمر"(١٣٣).

٣. ربط الأسباب بالمسببات وترتبها عليها، وفي هذا الباب وردت آيات كثيرة تدل على تحقق الأمور عند وقوع أسبابها مع تحقق انتفاء الموانع. وجريان هذا النظام "وهو من فعل الله تعالى، فإن كون الشيء سبباً لغيره أو مسببا عن غيره هو فعل الله تعالى وحكمه فهو خالق الأسباب والمسببات، ولولاه ما صار هذا الشيء سبباً لغيره ولا صار هذا الغير مسبباً عنه "(١٣٤). ومما ورد في القرآن من هذا النوع قوله تعالى: (وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) (١٣٥). قال الألوسي بعد أن بين وجه إعراب (ما) في قوله (بما كانوا): "والباء على الوجهين سببية"(١٣٦) وهذا تصريح بأن سبب ما حل بهم من لباس الجوع والخوف هو ما كانوا يصنعون، وصنيعهم هو الذي بينته الآية بقوله تعالى: (فكفرت بأنعم الله) فدل على أن الكفر بأنعم الله سبب زوالها.

كما نجدُ ربط النتيجة بالسبب في قوله تعالى: "**ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار**

---

١٢٧. المجادلة : ٢١.

١٢٨. الإسراء: ٤.

١٢٩. الإسراء : ٦.

١٣٠. الحج : ٣٨.

١٣١. الشورى : ٤٠.

١٣٢. غافر: ٥١.

١٣٣. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ٧ / ٢٨٠ .

١٣٤. زيدان، **السنن الإلهية**،٢٦ .

١٣٥. النحل: ١١٢.

١٣٦. الألوسي، **روح المعاني**، ١٤/٢٤٤.

تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين"(١٣٧) قال أبو السعود: "أي أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب فما أغنى عنهم تلك العدد والأسباب فسيحل بهؤلاء _ يعني كفار قريش _ مثل ما حل بهم من العذاب"(١٣٨). وقال القرطبي: "فالذنوب سبب الانتقام وزوال النعم"(١٣٩) وهذا يدل على أنه أمر مطرد وسنة إلهية ماضية في كل أمة كثرت ذنوبها فيحل بها الهلاك مهما أوتيت من أسباب التمكين والقوة.

٤. تقرير نتيجة معينة بناء على وصف معين (١٤٠) كما في قوله تعالى: "**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا**"(١٤١)

وكما في قوله سبحانه: "**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**"(١٤٢) حيث تدل هذه الآية على أن الله تعالى كشف عن قوم يونس (العذاب) لإسراعهم إلى الإيمان قبل معاينته ولم يؤخروا إيمانهم لحين معاينته(١٤٣) كما فعل فرعون إذ لم يعلن إيمانه إلا حين أدركه الغرق. ومما يؤكد هذا المعنى الحديث الشريف الذي جاء بصيغة قاعدة مطردة وهو قوله ﷺ: " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر "(١٤٤) .ويؤيد هذا المعنى ما جاء على صيغة سنة مطردة وقاعدة ثابتة في قول الله تعالى: "**وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار**"(١٤٥).

ويمكن أن نلحق بهذا المعنى ترتيب عقوبة على موقف معين ثم التعقيب عليه بأنه عبرة، كما في قوله تعالى واصفاً فرعون: "**فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى**"(١٤٦) وموضع الشاهد أنه أخذ فرعون بعقوبة لقوله منكرا وجعل أخذه عبرة لغيره (١٤٧)، ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: "**والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا**"(١٤٨).

٥. أسلوب الشرط والجزاء: أسلوب الشرط في مفهومه اللغوي هو تعليق شيء على شيء من خلال جملتين صغيرتين هما جملة فعل الشرط وجملة جواب الشرط ،تربط بينهما أداة تسمى أداة الشرط (١٤٩). وهذا الأسلوب إنما

---

١٣٧. الأنعام: ٦.

١٣٨. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**،٣/١١١ .

١٣٩. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ٦/٣٩٢ .

١٤٠. زيدان، **السنن الإلهية**، ١٦ .

١٤١. الكهف: ٥٩.

١٤٢. يونس: ٩٨.

١٤٣. أبوالسعود، **إرشاد العقل السليم**، ٤/١٧٦.

١٤٤. الترمذي، محمد بن عيسى، **السنن**، ط: بيت الأفكار الدولية، ك: الدعوات/ باب: في فضل التوبة. حديث رقم: ٣٥٣٧ ص٥٥٦ .

١٤٥ .النساء: ١٨.

١٤٦ .النازعات: ٢٣-٢٦.

١٤٧. أي والبلد الطيب يخرج نباته حسنا وافيا بإذن ربه. وهو مثل المؤمن والكافر، أو من ينتفع بالعلم ومن لا ينتفع به. الرازي، **مفاتح الغيب**، ١٤/١٥٠. الألوسي ٨ /١٤٧. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ٢/٢٢٢.

١٤٨. الأنعام: ٥٨.

١٤٩. أبو مغلي، سميح، وهشام عامر عليان، **المرجع**

يدل على سنة إلهية حين يتعلق بأفعال الله تبارك وتعالى لا فيما يتعلق بأفعال المكلفين كما هو عند الأصوليين (١٥٠).

وعليه فإن أسلوب الشرط الدال على سنة إلهية هو الأسلوب الذي يعلق فعلاً إلهياً على تجاوب البشر مع فعل تكليفي كما في قوله تعالى: "**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**"(١٥١) وكما في قوله تعالى: "**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"(١٥٢). وقوله تعالى: "**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**"(١٥٣).

ومن أسلوب الشرط قوله تعالى: "**من يعمل سوءاً يجز به**"(١٥٤) وفي بيان سنة الله في ثمرة التقوى قوله تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم**"(١٥٥) وقوله تعالى: "**ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه**"(١٥٦).

٦. أسلوب الاستفهام الإنكاري أو التقريري

ومقصود الاستفهام الإنكاري هو تكذيب النافي أو توبيخه على أمر(١٥٧). وللتعرّف على دلالة هذا الأسلوب على السنن الإلهية ننظر في موضوعه ؛ فإن كان يتعلق بأفعال الله نفياً أو إثباتاً في مجابهة من يخطئون فهم سنن الله تعالى وأحكامه، كمن يسيئون الظن بالله ولا يقدرونه حق قدره، كان ذلك دليلاً على إثبات فعل الله تعالى في ذلك الأمر، فهو سنة الله، كما في قوله تعالى "**أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون**"(١٥٨).

أي لا نجعل المسلمين كالمجرمين .حيث يرد بهذا الاستفهام الإنكاري(١٥٩) على المشركين الذين يدعون أن لهم في الآخرة مثل حظهم في الدنيا بل خيراً منه. كما قال ابن عباس وغيره: قالت كفار مكة إنا نعطى في الآخرة خيراً مما تعطون فنزلت(١٦٠). أي إن كفرهم لا يكون سبباً في نفي المساواة ولا إيمان المؤمنين سبباً في تفضيلهم عند الله، فرد الله عليهم ذلك .(١٦١)

وقد كثر استخدام هذا الأسلوب في نفي ظن في غير موطنة، كظن العصاة المساواة مع المؤمنين العاملين للصالحات. كما في قوله تعالى: "**أم حسب الذين اجترحوا السيئات**

السهل في قواعد النحو العربي، ١٦٦.

(١٥٠) يعرف الشرط عند الأصوليين بأنه: وصف ظاهر منضبط يلزم من عدمه عدم الحكم أو عدم السبب. أو هو ما يتوقف على وجوده وجود الحكم ويلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم. عبد الرحيم، جلال الدين، **غاية الوصول إلى دقائق علم الأصول**، ١٨٢.

(١٥١) محمد : ٧.

(١٥٢) الرعد : ١١.

(١٥٣) الأعراف: ٩٦.

(١٥٤) النساء : ١٢٣.

(١٥٥) الأنفال : ٢٩.

(١٥٦) الطلاق: ٢-٣.

(١٥٧) عباس، أ.د.فضل، **البلاغة فنونها وأفنانها**، ١٩٤.

(١٥٨) القلم : ٣٥-٣٦.

(١٥٩) الشوكاني، **فتح القدير**، ١٧٤/٥.

(١٦٠) القرطبي، **الجامع لاحكام القرآن**، ٢٤٦/١٨، الشوكاني، **فتح القدير**، ٢٧٤/٥.

(١٦١) الجمل، **الفتوحات الالهيه** / حاشيته، على الجلالين، ٣٨٨/٤.

أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون"(١٦٢).

كما استخدم في نفي ظن المؤمنين حين إعلانهم الإيمان عدم الابتلاء أو الحصول على النصر بسهولة ويسر دون تمحيص وصبر وجهاد. كما في قوله تعالى: "**أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون**"(١٦٣) وكما في قوله تعالى: "**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**"(١٦٤).

قال الشوكاني عن (أم): إنها تجيء بمثابة همزة الاستفهام يبتدأ بها الكلام فعلى هذا المعنى الاستفهام هنا للتقرير والإنكار(١٦٥).

أي: أحسبتم دخولكم الجنة واقعاً ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا؟ وحول هذه الآية يبين سيد قطب أنها توجه المؤمنين إلى أن هذه هي سنة الله القديمة في تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا أهلا لها.(١٦٦)

ومنها ظن الكافرين العبث في أفعال الله أو عدم الحكمة، أو لا قصد لوجودهم(١٦٧) كما في قوله تعالى: "**أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون**".(١٦٨) أما الاستفهام التقريري فمراده تثبيت الأمر وتحقيقه، أو انتزاع إقرار المخاطب واعترافه(١٦٩) فإذا تعلق هذا التثبيت والتحقيق والإقرار والاعتراف بفعل مطرد لله تعالى دل على ثبوت سنة إلهية. كما في قوله تعالى: "**ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد**"(١٧٠) وقوله تعالى: "**أليس الله بكاف عبده**"(١٧١) وقوله: "**أليس الله بعزيز ذي انتقام**"(١٧٢) وقوله: "**أليس الله بأحكم الحاكمين**"(١٧٣).

٧. أسلوب القصر: وهو أسلوب من أساليب البيان العربي الذي كثر في القرآن الكريم ويفيد معنى التخصيص من خلال إفادة حكمين مختلفتين هما الإيجاب والسلب. بما وإلا، أو لا وبل، أو إنما، أو التقديم والتأخير (١٧٤). ويكون هذا الأسلوب دالا على سنة إلهية إذا كان مقترنا بمعنى لا يكون إلا بفعل الله قابل للتجدد لا ينحصر في فرد كما في قوله تعالى: "**ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل**

---

١٦٢ .الجاثية: ٢١.

١٦٣. العنكبوت: ٢.

١٦٤. آل عمران: ١٤٢.

١٦٥. الشوكاني، **فتح القدير**، ٢١٥/١ .وتوضيح معنى الإنكار والتقرير؛أي حمل المؤمنين على الاعتراف بأنهم يظنون ويحسبون وقوع النصر والتأهل لدخول الجنة قبل الابتلاء والتعرض لألوان الشدة. وأما الإنكار فهو ينكر عليهم أن يظنوا هذا الظن لأنه مخالف لسنن الله الجارية في الأمم من قبلهم .

١٦٦. قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، /٣١٦.

١٦٧. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ٢٥٩/٣ .

١٦٨. المؤمنون: ١١٥.

١٦٩. عباس، فضل حسن، **البلاغة فنونها وأفنانها**، ١٩٤.

١٧٠. إبراهيم: ١٩.

١٧١. الزمر: ٣٦.

١٧٢. الزمر: ٣٧.

١٧٣. التين: ٨.

١٧٤. ليس غرضنا هنا تفصيل البحث في القصر من حيث أدواته وأطرافة وأنواعه، ولمعرفة ذلك راجع الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ٣٢٧. ولاشين، عبد الفتاح، **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، ٢٦٨، وعباس، **البلاغة فنونها وأفنانها**، ٣٥٧ .

أحياء ولكن لا تشعرون"(١٧٥) فليس الشهداء أموات ولكنهم أحياء لا نشعر بحياتهم ولتأكيد ثبوت هذا الحكم واستمراره قصروا على الحياة(١٧٦). ولما كان الشهداء جنسا لا تنحصر أفراده قابلا للتجدد ما دام الجهاد ماضيا ثبت أن هذه سنة الله في الشهداء .

ومثل هذا قوله تعالى: "**ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم**"(١٧٧) وقد دلت هذه الآية بأسلوب قصر البخل على الشر أنها سنة الله تعالى الدائمة في البخل وان مآله إلى شر دائما. حيث نفى عنه الخير وقصره على الشر لا غير(١٧٨).

ومن هذا الباب قول الله تعالى: "**وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ألا أمم أمثالكم**"(١٧٩). وجاء في الحديث من هذا النوع قوله ﷺ: (لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدّة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء)(١٨٠).

٨. أسلوب القسم حينما يحمل التأكيد على اطراد أمر ودوامه. كما في قوله تعالى: "**والشمس وضحاها .....قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها**"(١٨١).

٩. ضرب المثل: وهو باب واسع من أبواب التعبير القرآني وأسلوب من أساليب البيان المؤثر له أغراضه المتعددة (١٨٢) يهمنا منها هنا ما يحمل معنى السنة الجارية في شأن من الشؤون ترغيباً بفعل أو تنفيراً منه ،يظهر تصوير كل منهما بأبلغ صورة دالة على قاعدة ثابتة وسنة مطردة. كما في قوله تعالى: "**مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل**"(١٨٣) ترغيباً بالإنفاق وبياناً لسنة الله تعالى في ثمرات الإنفاق المطردة، ومنه مثل الكلمة الطيبة وفضلها والكلمة الخبيثة ومحقها.

ومثل اتخاذ أولياء من دون الله الذي لا يجلب خيراً ولا يدفع شراً كمثل بيت العنكبوت الذي لا يقي حراً ولا برداً ولا يستقيم حاله إذا اشتدت الريح. وقد عظّم القرآن من شأن المثل في الهداية وإقامة الحجة والعظة والاعتبار، فقال: "**ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا**"(١٨٤)

---

١٧٥. البقرة: ١٥٤.

١٧٦. لاشين، **المعاني في ضوء أساليب القرآن**،٢٧٠ .

١٧٧. آل عمران : ١٨٠.

١٧٨. أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ١٢٠/١ .

١٧٩. الأنعام: ٣٨.

١٨٠. ابن ماجة، **السنن**، ك/ الفتن/ باب : العقوبات، حديث رقم: ٤٠١٩ /ج٢/١٣٣٢-١٣٣٣.

١٨١. الشمس:١-١٠.

١٨٢. الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ٤٨٦/١. السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ٤٤/٤. القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن**، ٢٨٧. الزمخشري، **الكشاف**، ١٩٥/١، الفياض، د. محمد جابر، **الأمثال في القرآن**،٢٨٧.

١٨٣. البقرة:٢٦١.

١٨٤. الإسراء: ٨٩.

وكان المثل من أهم وسائل الدعوة على ألسنة الأنبياء السابقين، كما قال الله سبحانه وتعالى: "**وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تتبيراً**"(١٨٥) فما من أمة نزلت بها عقوبة وحلت بساحتها نقمة إلا وقد ضرب لها الأمثال(١٨٦)، أي تحذيرا من أن يحل بهم مثل ما حل بأسلافهم من العذاب. كما قال شعيب عليه السلام لقومه: (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد)(١٨٧).

١٠. القصة القرآنية تختلف القصة القرآنية عن غيرها من القصص في صدقها وواقعيتها، إذ هي حقائق تاريخية وأحداث زمنية تتنزه عن الخيال أو التفنن المصطنع(١٨٨) وتحتل القصص القرآنية قريباً من ربع القرآن الكريم(١٨٩).

والقصة القرآنية وهي تحمل طابع الإمتاع والعرض التاريخي تحمل معها غزارة المعاني والفوائد التي تجل عن الحصر، فهي جزء من القرآن الذي لا يخلق على كثرة الرد. ولذا نجدها تحمل الكثير من الفوائد والقضايا ذات الأثر الكبير في الحياة الإنسانية، كما تعد جزءاً لا يتجزأ من الهداية القرآنية الشاملة (١٩٠).

والذي يعنينا هنا هو الحديث عن دور القصة القرآنية في الكشف عن السنن الإلهية وهو من أجلّ الأغراض التي عالجتها القصة القرآنية، ولعلها من أكثر آي القرآن خصوبة وغزارة في تحقيق هذا الغرض. ذلك أنها تحمل الجانب التطبيقي والحدث العملي الذي نقش على صفحة الوجود الكشف عن أفعال الله تعالى التي أجراها على الأمم الماضية. ويشير القرآن إلى دور القصة في الاعتبار في قوله تعالى: "**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**"(١٩١).

إن أول ما يلفت الأنظار في أحداث القصص القرآني هو أنها تجري بتدبير وفعل إلهي، وكأنك تنظر إلى تدبير الله تعالى وهو يقلب الأحداث عبر الزمن، يأخذ من يشاء ببطش وينجي من يشاء بلطف. وذلك وفق ضوابط وقواعد وأسباب ترتبط بالتكليف والابتلاء، وهي سنن الله التشريعية. ونرى قدرة الله تعالى وهي تمسك بالأحداث وتسيرها من خلال نسبة الفعل إلى الله تعالى في كثير من أحداث القصة مثل: أرسلنا، مكنا، وهبنا، أخذنا، تبرنا، أهلكنا، جعلنا، دمرنا، أورثنا، أخرجنا، نجينا، أنجينا، فدمدم عليهم ربهم، أخذهم الله ٠٠٠.

كما لا يخفى أن هذه الأفعال مقترنة بأسباب وعلل ترتبط بها، وهذا إنما يدل على أن الأحداث إنما تجري بأمر الله وتدبيره، وأنها تجري وفق سنن منتظمة هي سنن الله.

ويمكننا أن نشير إلى عدد من السنن الإلهية الظاهرة التي تستنبط من القصص

---

١٨٥. الفرقان : ٣٩.

١٨٦. الفياض، **الأمثال في القرآن**، ٢٩٢ .

١٨٧. هود : ٨٩.

١٨٨. القطان، **مباحث في علوم القرآن**،٣٠٨. عباس، **القصص القرآني**، ٤٢٧.

١٨٩. المرجع السابق، ١٠ .

١٩٠. المرجع السابق،١٠-١١ .

١٩١. يوسف: ١١١.

القرآني :

١. الابتلاء بالدعوة إلى الخير والإيمان والعمل الصالح والإصلاح، ثم تأخذ صوراً متنوعة من الابتلاء بالسراء والضراء وفتح أبواب كل شيء حتى إذا فرح القوم بما أوتوا أخذوا على غرة.

٢. من سنن الله في المجتمعات انقسامهم إلى فئتين فئة الملأ وأتباعهم، وفئة الإيمان والإصلاح .ثم وقوع الصراع بينهما.

٣. نجاة المؤمنين وهلاك المكذبين، فكل أمة كذبت هلكت ونجا رسولها ومؤمنوها بعد صبر وتحمل "**إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**"(١٩٢) فقد نجت مع رسولها.

٤. الله غالب على أمره، وذلك إذا حاول بعض المتكبرين أو الجاهلين الوقوف في وجه السنن الإلهية. كما أراد فرعون طمس بني إسرائيل حذراً من ظهور محرر لهم. وكما أراد أخوة يوسف التخلص من يوسف حذرَ أن يكون خيراً منهم. ففي الأولى قال تعالى: "**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**"(١٩٣) وفي الثانية بعد أن ذكر نجاة يوسف وبلوغه مكاناً آمناً قال: "**والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون**"(١٩٤).

٥. الاستخلاف وتعاقب الأمم. قال هود عليه السلام لقومه: "**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة ...**"(١٩٥). وسنة الاستخلاف يترتب عليها أن يكون المستخلَف تحت النظر والاختبار. قال تعالى: "**وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**"(١٩٦). وقال: "**ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**".(١٩٧)

٦. من أسباب الهلاك التكذيب للرسل، والإعراض عن البينات، أو الإيغال في المادية، أو الغرور بالقوة والتمكين والركون إلى الرخاء الاقتصادي، أو الاستعلاء وازدراء الغير...

٧. الكشف عن سنن بناء الأمم والمجتمعات والحضارات وسنن الهدم والزوال.

٨. لكشف عن السنن الناجحة في بناء شخصية الفرد، وأسرار النجاح في الحياة "**إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**"(١٩٨) "**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حِيث لا يحتسب. ومن يتوكل على الله فهو**

---

١٩٢. يونس: ٩٨.

١٩٣. القصص: ٥-٦.

١٩٤. يوسف: ٢١.

١٩٥. الأعراف: ٦٩.

١٩٦. الأنعام : ١٦٥.

١٩٧. يونس : ١٤.

١٩٨. يوسف : ٩٠.

حسبه"(١٩٩).

٩. من خلال قصة آدم عليه السلام يمكن التعرف إلى السنن الفطرية التي جبل عليها الإنسان بغرائزه الطبيعية، وهي سنن تكوينية، ولكن ذلك يساعد على كيفية التعامل معها وتنظيم إشباعها من خلال السنن التشريعية، ونسترشد بهذا إلى الدخول إلى باب حيوي واسع، هو البحث في التوازن والانسجام بين السنن التكوينية وبين السنن التشريعية.

خاتمة البحث

إن وجود هذا الكون الواسع بأبعاده الممتدة بما لا يدرك الإنسان حدوده ومداه ،وما يظهر عليه من اتزان وصلاح يدل على وجود الله تعالى وعظمته "**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**"(٢٠٠) وإن وجوده على هيئة من الإحكام والإتقان والتوازن لخير شاهد على أنه يسير وفق نظام منضبط، يحكمه من بيده القدرة المطلقة الكاملة، يدركها أولو الألباب، قال تعالى: "**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**"(٢٠١) وإن هذا الإحكام والإتقان في الصنع والإبداع، يصحبه إحكام وإتقان في الحركة والانتظام، ليضمن البقاء والدوام إلى ما شاء الله رغم الحركة الدائمة التي لا يعرف الإنسان متى بدأت ومتى ستنتهي، وهذا النظام المحكم هو قانون الله الذي ضبط به الوجود أو قل هو سنة الله التي يحكم بها المخلوقات.

وكما حكم الله تعالى هذا الكون بهذا الإبداع، حيث لم تخل صغيره ولا كبيرة من نظام محكم يحكمها، سواء في وجودها وتكوينها أو في عملها ووظيفتها. "**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**"(٢٠٢) "**إنّا كل شيء خلقناه بقدر**"(٢٠٣). فإن حكم الحياة البشرية القائمة على التكليف والاختيار والابتلاء، منضبط وفق نظام محكم أيضا، وخير سبيل للكشف عن سنن الله التي تسير على وفقها الموجودات، هو كتاب الله تعالى البيان الناطق والهبة السماوية لأهل الأرض، ليكشف لهم عن قدرة الله تعالى التي تحكم الوجود، وعن يد الله تعالى المدبرة لكافة شؤونه، قال تعالى: "**ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير**"(٢٠٤) .

ولكي يسهل الفهم عن الله مراده لا بد من تلقيه بالقبول والإيمان، مع الإيمان الكامل بأركان العقيدة، لأن السنة القويمة لفهم الأمور على حقيقتها أن تؤتى من أبوابها ،وأبواب الفهم لكتاب الله تعالى هي الإيمان بالله وبكتابه، ولهذا تعد هذه قاعدة أساسية ضرورية لفهم أسرار هذه السنن.

ولدى الاستقراء لكتاب الله تعالى نجد أن

---

١٩٩. الطلاق : ٢-٣.

٢٠٠. الأنبياء : ٢٢.

٢٠١. آل عمران: ١٩٠-١٩١.

٢٠٢. طه : ٥٠.

٢٠٣. القمر: ٤٩.

٢٠٤. آل عمران: ١٨٩.

منها سنناً خاضعة للتكوين الخلقي والوجود المادي والخضوع الاضطراري، فهذا النوع أثار القرآن العقل للتدبر والتفكر فيه ،كما كشف عن كلياته وعمومياته وفصل في الكثير من جزئياته وترك مساحات واسعة للعقل البشري ليتدبر، ثم ليلتقي النظر والبحث الموفق لآيات الوجود مع الوصف القولي من آيات الموجد سبحانه.

ولله تعالى في تكليف العقلاء سنن تترتب على الابتلاء والتكليف، مبنية على حسن التعامل مع الفطرة الذاتية للإنسان، والتناسق مع الحقائق الكونية وسنن الإذعان والخضوع للواحد الديان. فمن وافق سنن الله نجا وفاز ونال السعادة والرضا في الدارين، ومن خالف سنن الله هلك ولحق به البوار والشقاء في الدارين.

وهذه السنن متشعبة متشابكة لا يمكن الكشف عنها إلا من خلال الإعلام الإلهي والبيان الرباني ،وقد جاء ذلك بأساليب القرآن البيانية المتنوعة؛ من خبر واستفهام وقصر وقسم وأمثال وقصة فكانت تتحدث عن أفعال الله تعالى في العباد وتحمل طابع الدوام والاستمرار والاطراد على وفق تجاوبهم مع أوامر الله وآياته.

ويمكن أن نوجز البحث بالنقاط الآتية:

١. لله تعالى سنن يحكم بها الوجود.
٢. لفهم هذه السنن أُسس ومُرتكزات، هي: الإيمان بالله تعالى، وأسمائه وصفاته الدالة على أفعاله، والإيمان بالقدر، وبكتاب الله وهدايته وشمول هذه الهداية لكل ما يلزم من حاجات الإنسان. ومن أهمها معرفة السنن الإلهية ليعرف كيف يتعامل ويتجاوب معها.
٣. السنن الإلهية نوعان: سنن تكوينية وسنن تشريعية.
٤. يمكن الكشف عن السنن التكوينية بالخبر والنظر.
٥. لا يمكن الكشف عن السنن التشريعية إلا بالخبر الصادق عن الله تعالى، ويعرف ذلك من خلال أساليب البيان القرآني المتضمن الحديث عن أفعال الله تعالى مع عباده الدالة على الدوام والاستمرار والاطراد.

التوصيات

١. يوصي الباحث بمزيد من الدراسة للكشف عن سنن الله تعالى ومعرفة أنواعها ومجالاتها وسبل التعرف إليها والكشف عنها.
٢. كما يوصي الباحثين بالاطلاع على سنن الله تعالى في جميع شؤون الحياة كي تتخذ السنن الإلهية القطعية الثبوت والدلالة ميزاناً للكشف عن تفسير كثير من الظواهر الحياتية، كتفسير حركة التاريخ وتفسير عوامل نشوء الأمم والحضارات وسبل نجاح الأفراد والجماعات.
٣. البحث في مدى التوافق بين السنن التكوينية والسنن التشريعية وكيف يتم التواؤم والانسجام بينهما، خاصة فيما يتعلق بتكوين الإنسان؛ أعني الغرائز والفطرة والنزعات البشرية وكيف يمكن التعامل معها على وفق التشريع السماوي بما يحقق السعادة للإنسان؛ فإن التوصل

إلى سر التوافق بينهما هو سر النجاح والفوز.

من خلال الفهم والإدراك السليم لأسرار التوافق بين السنن الفطرية البشرية والسنن التشريعية يمكن معرفة أسرار التوازن بين المتضادات الاجتماعية، التي يربك الجهل بها جميع المجتمعات الماديّة، ويوقعها في أطراف الإفراط والتفريط. كإدراك التوازن بين حقوق الفرد والمجتمع، أو بين حقوق وواجبات ووظيفة كل من الرجل والمرأة، وبين المادة والروح، وبين المال مع المصالح الأخرى وقيمة الإنسان. هذا وإن الحديث عن السنن الإلهية باب واسع يعجز الإنسان عن الإحاطة به، تماما كعجزه عن الإحاطة بأسرار القرآن، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جُلّه.

قائمة المراجع

القرآن الكريم

١) الأصفهاني، الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم – الدار الشامية، ط ٢، ١٩٩٧م.

٢) الألوسي، محمود، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، (بلا. ت) .

٣) ابن تيمية، أحمد، **مجموع الفتاوى الكبرى**، ط٢، ١٣٩٩هـ .

٤) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، المطبعة الأزهرية، ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م .

٥) بن كثير، أبو الفداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم** دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، (بلا. ت).

٦) ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجة**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر (بلا. ت).

٧) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، (بلا. ت) .

٨) أبو خليل، شوقي، **الإنسان بين العلم والدين**، ط٣، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

٩) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، المشتهر بتفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، (بلا. ت) .

١٠) أبو مغلي، سميح، وهشام عامر عليان، **المرجع السهل في النحو**، ط٢،١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

١١) البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري**، ط: بيت الأفكار الدولية، (بلا. ت).

١٢) البنا، أحمد عبد الرحمن، **الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد مع شرحه بلوغ الأماني**، دار الشهاب _القاهرة، (بلا. ت).

١٣) البوطي، محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية**، ط٦، دار الفكر، (بلا. ت).

١٤) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، مع حاشية الكازروني / مؤسسة شعبان، (بلا. ت).

١٥) الترمذي، محمد بن عيسى، **جامع الترمذي**، ط: بيت الأفكار الدولية، (بلا. ت).

١٦) الجرجاني، الإمام عبد القاهر، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تحقيق : د. ياسين الأيوبي، ط١، المكتبة العصرية – صيدا/بيروت، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

١٧) الجزائري، أبو بكر جابر، **عقيدة المؤمن**، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩١هـ ١٩٧٧م.

١٨) الجمل، سليمان بن عمر العجيلي، **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، (بلا.ت) .

١٩) الجميلي، السيد، **الإعجاز الطبي في القرآن**، ط١، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٥م.

٢٠) الحنفي، أبو العز، **شرح العقيدة**

الطحاوية، تحقيق جماعة من العلماء، تخريج: محمد الألباني، ط١: ١ – ١٣٩٢، المكتب الإسلامي –بيروت، (بلا. ت) .

٢١) حوى، سعيد، **الله جل جلاله**، ط٣ : ١٣٩٢هـ ١٩٧٢ م .

٢٢) خضر، عبد العليم عبد الرحمن، **المنهج الإيماني للدراسات الكونية**، ط٣، دار السعودية- جدة، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.

٢٣) خلاّف، عبد الوهاب، **علم أصول الفقه**، دار القلم، الكويت، ط٨، (بلا. ت).

٢٤) الدسوقي، فاروق أحمد حسن، **قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة في القرآن والسنة**، دار الدعوة (بلا.ت).

٢٥) الرازي، محمد بن ضياء الدين عمر، **التفسير الكبير**، ط١، دار الفكر، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.

٢٦) رضا، محمد رشيد، **تفسير المنار**، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٢٧) الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السّري، **تفسير أسماء الله الحسنى**، تحقيق : أحمد يوسف الدقاق، مطبعة محمد هاشم الكتبي، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

٢٨) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، ط٢، ١٣٩١ هـ –١٩٧٢م.

٢٩) الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (بلا. ت).

٣٠) زيدان، بد الكريم، **السنن الإلهية في الأمم والأفراد والجماعات**، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م.

٣١) لزين، سميح عاطف، **الإسلام وثقافة الإنسان**، ط٥، دار الكتاب اللبناني – بيروت، دار الكتاب المصري – القاهرة –١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٣٢) سالم، عبد المقصود محمد، **في ملكوت الله مع أسماء الله**، ط٥، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م.

٣٣) السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٣٤) شهوان، د. راشد سعيد، **مدخل إلى السنن الربانية**، بحث مقدم لمؤتمر السنن الإلهية في الكتاب والسنة المعقد بجامعة الزرقاء الأهلية بتاريخ ٢٢-٢٤/٧/ ٢٠٠٣ م.

٣٥) الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير**، ط ٢، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م.

٣٦) عباس، فضل حسن وسناء فضل، **إعجاز القرآن الكريم**، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

٣٧) عباس، فضل حسن، **البلاغة فنونها وأفنانها**، ط٢، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٩هـ –١٩٨٩ م.

٣٨) عباس، فضل حسن، **القصص القرآني نفحاته وإيحاؤه**، ط١، دار الفرقان- عمان، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م .

٣٩) عباس، فضل حسن، **لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن**، ط١، دار النور – بيروت ،

١٤١٠هـ ١٩٨٩ م .

٤٠) عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (بلا. ت) .

٤١) عبد الرحمن، جلال الدين، **غاية الوصول إلى دقائق علم الأصول**، ط١، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

٤٢) عرجون، محمد الصادق، **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم**، ط١ منشورات العصر الحديث -جدة، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

٤٣) علي، محمد سامي محمد، **الإعجاز العلمي في القرآن**، دار المحبة، (بلا. ت).

٤٤) العسقلاني، أحمد بن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ط: بيت الأفكار الدولية، (بلا. ت).

٤٥) عطية، زينب محمد، **أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم ؛ السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم**، إشراف د .جمال الدين محمد عطية، ط، دار الوفاء، ١٤١٦ هـ ١٩٥٥م.

٤٦) الفياض، محمد جابر، **الأمثال في القرآن الكريم**، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد، ١٩٨٨م.

٤٧) الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق الأستاذ: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، (بلا. ت).

٤٨) القرطبي، أبو عبد الله محمد ين أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، مصورة عن طبعة دار الكتب، نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، المكتبة العربية، القاهرة، ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧ م.

٤٩) القشيري، مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، بشرح النووي، ط، (بلا. ت).

٥٠) قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، ط٧، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

٥١) قطب، سيد، **المستقبل لهذا الدين**، دار الشروق، ١٤٠١ هـ -١٩٨١م .

٥٢) القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن**، ط٢٢، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٥٣) لاشين، عبد الفتاح، **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، ط ٤، المكتبة الأمويّة، ١٩٨٣م.

٥٤) مصطفى، إبراهيم وجماعة من العلماء، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، (بلا. ت).

٥٥) النووي، محي الدين، **المنهاج في شرح صحيح مسلم من الحجاج**، المطبعة المصريّة ومكتبتها، (بلا. ت).

٥٦) نوفل، عبد الرزاق، **الله والعلم الحديث**، الناشرون العرب، (بلا. ت) .

٥٧) النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، تحقيق ومراجعة: إبراهيم عطوة عوض، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط: -١٣٨١هـ ١٩٦٢م.

How to Explore Allah's System of Rules through Glorious Quran

Ahmad Al-Bashayra

Abstract

This paper is concerned with exploring Allah's system of rules or constitutions through Glorious Quran. The paper consists of an introduction and two sections. The introduction has underscored the significance of this study. It has also reviewed the relevant literature. Section one has dealt with bases and principles pertinent to understanding Allah's system of rules. These include believing in Allah, His Beneficent Names and Great Attributes, believing in the magnificent guiding power of Glorious Quran, as including all needs of man; the guidance to the fact that Allah has a system of rules in world is a case in point. Section two is concerned with the types of rules. This encompasses the comprehensive world system, which contained all huge and tiny creatures, their creation, systems, and instinctive functions. This type can be explored through Glorious Quran's verses relevant to Allah's world miracles, and through scientific research, observation and introspection in self and world. The second type is legislative system of rules. This type encompasses all the deeds or actions set forth by Allah according to man's response to orders and rejections. These deeds or actions are demonstrated in man's supremacy, success, and his punishment and failure. This system can be explored through Glorious Quran, the Great Prophet's Sunna "May prayers and peace be upon him". Linguistically, this type can be discovered in Glorious Quran and Prophet's styles, predicate, question, limitation, oath- taking, giving examples, stories, etc. which exhibit Allah's deeds with man according to his belief or disbelief; his obedience or disobedience. The conclusion contained a number of results and recommendations.